الفكر الإصلاحي عند الشيخ العربي التبسي وسماته الوطنية

د.خالد بلعربي

أستاذ محاضر بقسم التاريخ -جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس-

إنّ أهمية دراسة الفكر الإصلاحي للشيخ العربي التبسي وسماته الوطنية تعود إلى أنه من أبرز الذين ناضلوا عن عروبة الجزائر ودعوا إلى تحررها وتقدمها في نطاق الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب جانب عبد الحميد بن باديس وغيره من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . ومن الذين يرجع لهم الفضل في بعث النهضة الثقافية العربية في الجزائر المعاصرة . كما أن جهوده في حفظ الكيان الوطني للجزائر في ميادين التربية والتعليم والإصلاح الديني والاجتماعي، كانت الأساس الذي حطم دعوات الفرنسة والتغريب وإنكار الشخصية الجزائرية .

إنّ دراسة سمات الوعي الوطني في فكر الشيخ العربي التبسي ستتركز حول المحاور التالية:

- شخصية الشيخ العربي التبسي
- الشخصية الوطنية الجزائرية
- اللغة العربية والدفاع عنها
- مفهوم الوطنية عند الشيخ العربي التبسي

شخصية الشيخ العربي التبسي :

ولد العربي التبسي بن بلقاسم في سنة 1891م. تلقى الشيخ تعليمه في مسقط رأسه حيث حفظ القرآن صغيرا، ثمّ انتقل إلى مدينة نفطة بالجنوب التونسي، ثمّ إلى جامع الزيتونة بتونس عام 1914، ثمّ رحل إلى مصر عام 1920 حيث مكث بالأزهر الشريف فتعلم أصول الدين وعلومه، ثمّ عاد إلى الجزائر عام 1927 حيث قضى ثلاثين عاما في نشر العلم ومحاربة البدع والخرافات ومكافحة الإستعمار الفرنسي.

إنتقل بعد ذلك إلى مدينة سيق التابعة لولاية معسكر حاليا عام 1930 فعمل هناك مدرسا ومرشدا إلى غاية 1932 فقام بتأسيس مدرسة التهذيب للبنين والبنات.

تأثر الشيخ العربي التبسي بأئمة الثقافة الإسلامية، كالإمام علي كرّم الله وجهه، والحارث بن أسد المحاسبي أحد أئمة الحديث ومن أبرز أئمة التصوف وكذلك بالإمام محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية وابن تيمية.

الفكر الإصلاحي عند الشيخ العربي التبسي وسماته الوطنية

د.خالد بلعربي

أستاذ محاضر بقسم التاريخ -جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس-

إنّ أهمية دراسة الفكر الإصلاحي للشيخ العربي التبسي وسماته الوطنية تعود إلى أنه من أبرز الذين ناضلوا عن عروبة الجزائر ودعوا إلى تحررها وتقدمها في نطاق الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب عبد الحميد بن باديس وغيره من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . ومن الذين يرجع لهم الفضل في بعث النهضة الثقافية العربية في الجزائر المعاصرة . كما أن جهوده في حفظ الكيان الوطني للجزائر في ميادين التربية والتعليم والإصلاح الديني والاجتماعي، كانت الأساس الذي حطم دعوات الفرنسة والتغريب وإنكار الشخصية الجزائرية .

إنّ دراسة سمات الوعي الوطني في فكر الشيخ العربي التبسي ستتركز حول المحاور التالية:

- شخصية الشيخ العربي التبسي
- الشخصية الوطنية الجزائرية
- اللغة العربية والدفاع عنها
- مفهوم الوطنية عند الشيخ العربي التبسي

شخصية الشيخ العربي التبسي :

ولد العربي التبسي بن بلقاسم في سنة 1891م. تلقى الشيخ تعليمه في مسقط رأسه حيث حفظ القرآن صغيرا، ثمّ انتقل إلى مدينة نفطة بالجنوب التونسي، ثمّ إلى جامع الزيتونة بتونس عام 1914، ثمّ رحل إلى مصر عام 1920 حيث مكث بالأزهر الشريف فتعلم أصول الدين وعلومه، ثمّ عاد إلى الجزائر عام 1927 حيث قضى ثلاثين عاما في نشر العلم ومحاربة البدع والخرافات ومكافحة الإستعمار الفرنسي.

إنتقل بعد ذلك إلى مدينة سيق التابعة لولاية معسكر حاليا عام 1930 فعمل هناك مدرسا ومرشدا إلى غاية 1932 فقام بتأسيس مدرسة التهذيب للبنين والبنات.

تأثر الشيخ العربي التبسي بأئمة الثقافة الإسلامية، كالإمام علي كرّم الله وجهه، والحارث بن أسد المحاسبي أحد أئمة الحديث ومن أبرز أئمة التصوف وكذلك بالإمام محمد بن أبي بكر المشهور بإبن قيم الجوزية وإبن تيمية.

عندما أسس الشيخ عبد الحميد ابن باديس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي كان غرضها تحرير الجزائر عن طريق إنشاء جيش من من الشباب يحمل فكرة الجمعية وعقيدة الإسلام . كان الشيخ العربي التبسي سباقا إلى تأييده الكامل لأنه كان يؤمن بأنّ هذه الجمعية ستكون نقطة جذب لمئات الآلاف من أنصار العلم والتحرر(1).

إتجه االشيخ العربي التبسي في دعوته الإصلاحية إتجاها سلبيا . فقد أدرك منذ البداية أن نهضة الجزائر تتم عن طريق بعث الامة وإصلاحها قبل مواجهة المحتل الفرنسي، فكان يرى أنه لا يمكن في المرحلة الأولى من العمل الوطني الإصطدام بالاستعمار بجموع ما زالت تعتقد أن المجنون ولي الله، وأن الأمي المشعود عالم، فالوعي يفرض أن يأخذ العمل الوطني سمة العمل التربوي الهادف إلى القضاء على الجهل والخرافات التي ألصقت بالدين الإسلامي الحنيف، وزرع المفاهيم والمبادئ الصحيحة .

و عند اندلاع الثورة المسلحة عام 1954 لم يتقاعس الشيخ العربي التبسي على حث الناس على وجوب مساندة ومؤازرتها وتفضيلها وتقديمها على النفس والأولاد وهو القائل :"إنه لا يمكن إرضاء الإسلام والوطن وإرضاء الزوج والأبناء في وقت واحد، إنه لا يمكن للإنسان أن يؤدي واجبه التام إلا بالتضحية"(2) وفي موضع آخر يقول "إنهم رجال تململوا وتحركوا ودبت فيهم روح الحياة الجامحة التي تحطم أمامها كل معترض مهما كان قويا، وتقدموا يخوضون معركة الحياة..." (3).

أولا : الشخصية الوطنّية الجزائرية :

1- مواجهة سياسة التنصير : عندما أحكمت فرنسا قبضتها على الجزائر، أخذت تدعم هذا الوجود بحسب ظنها عن طريق مجموعة من الأنظمة والقوانين لفرنسة الجزائر وتنصير سكانها.

لقد استمرت فرنسا في محاولاتها الرامية إلى تنصير المغرب العربي الإسلامي بعامة والجزائر منه بخاصة فوجهت برسائلها التبشيرية العديدة من الآباء البيض معتقدة أن هذه المناطق ستكون تربة خصبة لبذورها(4).

إن سياسة التنصير نظر على أنها خطة فرنسية لمحو الإسلام وعروبة الجزائر، فأعلن العلماء جزأرة الشعب بخلق وبعث تاريخ الجزائر الوطني وإعطاء الأولوية للتعليم العربي والإسلامي، وعارضوا بشدة سياسة تنصير الشعب الجزائري، لقد رد الشيخ العربي التبسي :"إنه لمن العجيب حقا أن تريد فرنسا بتجنيسها محو جنس إنساني كامل في وقت تمنح فيه القوانين الدولية أداة أنواع الحيوان والطيور... ولذا فإننا لا نسلم في كرامتنا، ولا نتهاون في الخطر الذي يهدد جنسنا والله معنا"(5).

لقد اتجه الشيخ العربي التبسي في مواجهة هذا الإتجاه نحو محاربة الجهل لمواجهة سياسة فرنسا التنصيرية في الجزائر بواسطة المؤسسات التعليمية الحرة والحيلولة دون اندفاع الشباب نحو

المدارس الرسمية الفرنسية لتربيتهم على الفخر بالإسلام والعربية، لقد تجسد ذلك في النوادي التي أقامتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عبر الوطن، كنادي الإتحاد : في قسنطينةو النادي الإسلامي : في ميلة، ونادي التقدم في البليدة، ونادي النجاح في سيدي بلعباس(6).

إن معارضة الشيخ العربي التبسي الشديدة لتنصير الجزائر وتجنيسها تتأتى من إيمانه الراسخ بأنه لا مفاهمة مع فرنسا وهي التي ظلت تعمل للقضاء على اللغة والدين، فقال : "إن فرنسا لم تتركم أمة حين نزعت منكم اللغة، واحتلت منكم الإسلام وما فيه فلم تقبض عليه لإحيائه، وإنما قصدت بذلك إلى التصفية على معالمه، ولكنها مغلوبة ومحكوم عليها سلفا بالهزيمة"(7).

2- **التأكيد على انتماء الجزائر للأمة الإسلامية** : يعرف الشيخ العربي التبسي الجزائر بأنها "أمة شرقية في دينها، ولغتها، وعاداتها وأخلاقها ومشاعرها"(8) ثم يضيف قائلا "و أجدني موقنا بأن النشئ الجزائري سوف يعبر عن وجوده كأمة شرقية تحس الألم، وتحمي الذمار، ويتحرك قضه وقضيضه يعمل بعزيمة ماضية، وحكمة باللغة على إيجاد هيأة تكون رمزا للأمة الجزائرية"(9)

إن هذا التأكيد المباشر على إنتماء الجزائر للأمة الإسلامية جاء كردّ مباشر لمواجهة سياسة التنصير من قبل السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ومحاولتها محو الهوية القومية الحضارية للشعب الجزائري . لذلك كان الرجوع إلى التراث الإسلامي والاعتزاز به لدى الشيخ العربي التبسي في كل مرة يريد تأكيد إنتماء الجزائر للأمة الإسلامية(10).

والشيخ العربي التبسي كان يقيس وطنية المواطن بمدى تمسكه بالدين الإسلامي الحنيف ومدى إخلاصه له وتفانيه في الدفاع عنه وهو القائل :"و نحن بما أننا أمة إسلامية والإسلام دين غذاؤه العلم يجب علينا أن نكون أخضع الناس لما جرت به سنه الله في خلقه ولما علمناه من قدره في هذا الكون، وان نكون أيضا من اشدّ الناس عملا بما فهمناه من سنن الله"(11).

لقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تقوم على أركان اساسية هي العروبة والإسلام والعلم والفضيلة، وعبر ما قامت به الجمعية من إنشاء المدارس العربية الحرة والنوادي الثقافية وعقد الندوات استطاعت أن تحفظ للجزائر إسلامها وشخصيتها الوطنية من الإنسلاخ(12).

ثانيا : اللغة العربية والدفاع عنها : إتخذت اللغة العربية حيزا كبيرا من اهتمامات الشيخ العربي التبسي في الإصلاح والنهضة، بل إنه يرى أن الفضل يرجع لها في بقاء الدين بقوله :"و لكن لغتنا إليها يعود بقاء الدين ويظل مهيمنا على القلوب ما سكا بالأرواح "(13) وفي موضع آخر يقول "دين الأمة الذي لا سبيل لنا إليه غير اللسان العربي"(14) فلا غرابة في تركز جهوده على إحياء اللغة العربية ونشرها في الجزائر بعد أن سعى الاستعمار إلى حرمان الشعب الجزائري من تعليمها في المدارس .

إن الشيخ العربي التبسي لا يقف عند هذا الحد بل نجده يشدد على أن اللغة العربية هي لسان شمال إفريقيا كله بقوله:"إن شمال إفريقيا أمة عربية اللسان العامي وعربية اللغة العلمية، وعربية التعاليم الدينية، وعربية القضاء لا فرق بين مراكشهاو جزائرها وتونسها وطرابلسها"(15).

لقد أخذت جمعية العلماء المسلمين على عاتقها مهمة تعليم اللغة العربية ومواجهة محاولات وأدها ودفن حضارتها العربية فكان عملها محل جاذبية ونجاح فعلي إذا استندت على مبدأ أساسي هو "أن الجزائر بلادي، والإسلام ديني والعربية لغتي"(16).

جابهت فرنسا تلك الجهود فأصدر وزير داخليتها آنذاك شوتان قرارا رسميا في 18 مارس 1938 بمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر ونص على "أن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية" مع أن سكان البلاد كان يبلغ عددهم في تلك الفترة زهاء عشرة ملايين، لغتهم الوحيدة هي العربية.

لقد ركزت فرنسا جهودها الإستعمارية لتحقيق مشروعها في حرمان اللغة العربية من حق الوجود الرسمي المعترف به(17).

إن هذه المحاولات زادت من إصرار الشيخ العربي التبسي على مقاومة المخططات الفرنسية فنجده يقول "و اللغة الأجنبية بعنوان أجنبيتها معزولة عن حياة الشعب وكل شيئ أبعد عن حياة الشعب تعرض للموت والهجران"(18) و إن سبب تلك المقاومة يؤكده العربي التبسي بقوله "ذلك لأنه لا دين ولا قومية، ولا أمة ولا أي مقوم أو مميز للأمة إذا هي مضت فيما عليه من الجهل بلغتها، والعزلة عن تاريخها(19)".

ثالثا :مفهوم الوطنية عند العربي التبسي :

يعرف الشيخ العربي التبسي الوطنية على أنها "رأس عامة الفضائل، وقطب رحا الشرف، وهامة المعالي، وأية أمة اعتصمت بهد واستمسكت بمعناها الذي يحيي وحدتها ويحفظ عليها جامعتها، إلا وأخذت يمستقبلها بأوثق الأسباب وأمتن العرى وأتم عدة، وكلما غيرت النائبات في وجهها أو عصفت بها الشدائد وكانت المعقل المنيع والوزير البعيد على أن ينال منها نائل(20).

إن إطار الوطنية الجزائرية كان واضحا عند العربي التبسي. فقد كتب عام 1953 بمناسبة افتتاح دار التلميذ الجزائري مقالا بعنوان "أيها الشعب العظيم إستعد لليوم العظيم" يقول فيه : "إن هذه الدار هي وليدة رغبة الشعب، جاهدت في سبيلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ... وقدمتها بإسم الله إلى شبابنا العامل المناضل في سبيل الدين والعروبة والوطنية..." (21).

إن الحس الوطني لدى الشيخ العربي التبسي جعله يستشعر خطورة الوجود الفرنسي في الجزائر قائلا : "أيها المسلمون الجزائريون، إن فرنسا لم تتركم أمة حين نزعت منكم اللغة، واحتلت منكم الإسلام وما فيه، فلم تقبض عليه لإحيائه وانما قصدت بذلك إلى التعفية على معالمها"(22)

وهو يوضح أنها ستنهزم "و لكنها مغلوبة ومحكوم عليها سلفا بالهزيمة، لأن الإسلام دين الله والعروبة ترجمان السماء إلى الأرض"(23).

إن ذلك يعني وعيا متقدما وتأكيدا على نظر ثاقب عند الشيخ العربي التبسي في تحليل المرحلة التي كانت تمر بها الجزائر إبان الإحتلال الفرنسي آنذاك فتنبأ بفشل مخططاتها الرامية للقضاء على اللغة والدين الإسلامي.

الخاتمة : يعتبر الشيخ العربي التبسي واحد من العلماء الجزائريين وأكثرهم تحمسا للقضية الوطنية والذي قام بدور كبير يضاهي الدور الذي أدّاه ابن باديس في حركة النهضة الجزائرية الحديثة، فهو قطب من أقطاب الفكر الإصلاحي المعاصر البارزين الذين ذاع صيتهم دخل الوطن وخارجه.

لقد حفظ العربي التبسي وجمعية العلماء المسلمين الشخصية الوطنية الجزائرية من ممارسات التنويب الثقافي والحضاري ومحاولة تنصيير المجتمع الجزائري وبقاء الجزائر أرضا فرنسية.

إن العربي التبسي تميز عن غيره من المصلحين الإسلاميين في أنه لم يدع إلى قومية عربية بل دعا إلى قومية إسلامية أي وحدة العالم الإسلامي مستنبطا إستدلالته في طروحاته من الإسلام.

لقد تجسدت السمات الوطنية في فكر العربي التبسي في تناوله للقضايا الوطنية، نرى ذلك جليا في تأكيده على الشخصية الوطنية الجزائرية، وتأكيد إنتماء الجزائر للأمة الإسلامية في مواجهة سياسة التنصير، وكذلك تأكيده على اللغة العربية والتي عدها لغة الدين والجنس.

إن هذه السمات تمثل وعيا وطنيا متقدما دعا إليه العربي التبسي في كفاحه المستمر الذي أثمر بحركة فكرية سياسة ثورية كان لها الفضل في استقلال الجزائر عام 1962.

الإحالات

[1] - إن العربي التبسي يؤكد على دور العلم في بناء الأمم بقوله "... فقد آمن الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها بأن الجهل هو السبب الأساس في خراب الأمم، وسقوط الشعوب، وتدهور الجماعات البشرية، وأن العلم والمعرفة هما وسيلة الإنقادو سبيل النجاة، والطريق السوي الذي يفتح أبواب السعادة والحياة". أنظر، العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر جمع وتعليق، شرفي احمد الرفاعي، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر ط1. 1981. ص218.

[2] - نفسه، ص202

[3] - عمر قبلة، معالم في المسيرة الدينية والثورية للإمام الشهيد ضمن جريدة الراي العدد 1502 مارس 2003ص6.

[4] - بسام العسلي، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، بيروت دار النفائس 1982، ص56.

[5] - العربي التبسي، المرجع السابق ص52.

[6] - أحمد بن نعمان، الجهاد وثورة الإسقلال، دار البعث للطباعة قسنطينة، الجزائر 1982، ص176.

[7] - الشيخ العربي التبسي، المرجع السابق، ص229.

[8] - نفسه، ص51.

[9] - نفسه، ص57.

[10] - خيرية عبد الصاحب، الفكر القومي في المغرب العربي، دار الحرية، بغداد 1982، ص43.

[11] - العربي التبسي، المرجع السابق، ص119.

[12] - خيرية عبد الصاحب، تطور الوعي القومي العربي في أقطار المغرب العربي معهد البحوث والدراسات العربية، بيروت لبنان 1986، ص269.

[13] - العربي التبسي، المرجع السابق، ص65.

[14] - نفسه، ص60.

[15] - نفسه، ص160.

[16] - أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت 1958، ص122.

[17] - ساجد عبل، الشيخ عبد الحميد بن باديس والوعي القومي العربي (1889- 1940)، ضمن مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 254، أبريل 2000، ص66.

[18] - العربي التبسي، المرجع السابق، ص160.

[19] - نفسه، ص44.

[20] - نفسه، ص59.

[21] - نفسه، ص53.

[22] - نفسه، ص229.

[23] - نفسه، ص230.